Journal of Scientific and Human Dimensions
مجلة الأبعاد العلمية والإنسانية
ISSN: 3106-1702
Volume 2, Issue 3, 2026 Pages: 971-987
Journal homepage: https://jshd.com.ly/index.php/jshd/en

Tripolitanian–French Relations and Their Diplomatic and Maritime Repercussions in the Mediterranean Basin(1633–1805)

Dr. Zainab M. Mansour Doshi *
Department of History, Faculty of Education, Misurata University, Misurata, Libya

العلاقات الطرابلسية-الفرنسية وتداعياتها في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط خلال (1633-1805م)

د. زينب مصطفى منصور دوشي*
قسم التاريخ، كلية التربية، جامعة مصراتة، مصراتة، ليبيا

*Corresponding author: z.doshi@edu.misuratau.edu.ly

Received: June 28, 2026	Accepted: August 25, 2026	Published: September 20, 2026

Copyright: © 2026 by the authors. This article is an open-access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).

Abstract:
This study examines the historical and geopolitical trajectory of relations between the Regency of Tripoli and France during the period (1633–1805 AD), shedding light on the continuous fluctuations between military clashes, maritime activity, and reciprocal diplomacy. The study aims to bridge a historical gap by highlighting the early roots of consular relations since 1633, passing through the eras of the Beylerbeys, and culminating in the major transformations under the Karamanli dynasty—from the founder Ahmed Pasha, through Mohammed and Ali Pasha, to the peak of naval power and tribute imposition under Yusuf Pasha. Furthermore, the study analyzes the repercussions of the French expedition to Egypt and Malta (1798) on Tripoli, and how its Pashas employed a policy of balance and duplicity to safeguard the regency's independence amidst intense colonial rivalry between France and Britain in the Mediterranean basin. Adopting historical, inductive, and critical analytical methods, the research concludes that naval strength and active diplomacy served as the primary safeguards for Tripoli's prestige, whereas internal weakness led to the imposition of unfavorable treaties, making the regency a pivotal factor in great power competition in the Mediterranean.

Keywords: Tripolitan-French Relations, Karamanli Dynasty, Mediterranean Basin, Naval Fleet, French Expedition, Yusuf Pasha

الملخص:
تتناول هذه الدراسة مسار العلاقات التاريخية والجيوسياسية بين إيالة طرابلس الغرب وفرنسا خلال الفترة (1633-1805م)، مسلطة الضوء على طبيعة التذبذب المستمر بين الصدام العسكري، والنشاط البحري، والدبلوماسية المتبادلة. تسعى الدراسة إلى سد ثغرة تاريخية من خلال إبراز الجذور الأولى لتنظيم العلاقات القنصلية منذ عام 1633م، مروراً بمرحلة الاستقرار والاضطراب في عهد البكلربكات، وصولاً إلى التحولات الكبرى في ظل الأسرة القرمانلية بأطوارها المختلفة بدءاً من عهد المؤسس أحمد باشا، مروراً بعهد محمد وعلي باشا، وانتهاءً بذروة المكانة البحرية وفرض الإتاوات في عهد يوسف باشا. كما تحلل الدراسة تداعيات الحملة الفرنسية على مصر ومالطا (1798م) على ولاية طرابلس، وكيف وظّف باشاوات طرابلس سياسة التوازن والازدواجية لحماية استقلال الإيالة وسط التنافس الاستعماري المحتدم بين فرنسا وبريطانيا في حوض البحر الأبيض المتوسط. اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي والاستقرائي والتحليلي النقدي، وتوصلت إلى أن قوة الأسطول

البحري والدبلوماسية النشطة كانتا الصمام الأساسي لفرض هيبة طرابلس، بينما أدى الضعف الداخلي إلى فرض معاهدات مجحفة، مما جعل الإيالة ركيزة أساسية في صراع القوى الكبرى بالمتوسط

الكلمات المفتاحية: العلاقات الطرابلسية الفرنسية، الأسرة القرمانلية، البحر الأبيض المتوسط، الأسطول البحري، الحملة الفرنسية، يوسف باشا.

المقـدمة:

تشكل العلاقات التاريخية بين طرابلس الغرب وفرنسا نموذجاً حياً لتقاطع المصالح السياسية والاستراتيجية والاقتصادية في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال العصور الحديثة. فمنذ تحرر طرابلس من الوجود الصليبي عام 1551م وعصر البكربكيات، مروراً بتأسيس الأسرة القرمانلية على يد أحمد باشا القرمانلي عام 1711م، ومحطات الود والعداء والقصف البحري وصولاً إلى معاهدة 1729م، شهدت هذه الروابط تطورات متسارعة. وخلال عهدي محمد باشا وعلي باشا القرمانلي، تراوحت مكانة الإيالة بين فرض الهيبة البحرية ووقوعها تحت وطأة المعاهدات المجحفة نتيجة التدخلات الأوروبية والصراع الإنجليزي-الفرنسي، وصولاً إلى المرحلة الثالثة في عهد يوسف باشا القرمانلي (1795–1832م)؛ حيث أُعيد بناء المكانة البحرية للإيالة، وفرضت الإتاوات على الدول الأوروبية، وتجلت سياسة الازدواجية والتحالف المؤقت تزامناً مع الحملة الفرنسية عام 1798م على مصر ومالطا، مما جعل طرابلس ركيزة في التنافس الاستعماري الأوروبي الذي مهد لتغيرات كبرى في شمال إفريقيا.

تأسيساً على ما تقدم، وانطلاقاً من طبيعة موضوع الدراسة، فقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى مدخل تمهيدي، يليه ثلاثة مطالب رئيسية تغطي المراحل التاريخية المختلفة للعلاقات الطرابلسية - الفرنسية، وصولاً إلى خاتمة تتضمن أبرز نتائج البحث، وقائمة المصادر والمراجع.

وفيما يلي تفصيل هذه الهيكلية:

المطلب الأول: المرحلة الأولى في العلاقات الطرابلسية – الفرنسية (1630 - 1701م): يتناول هذا المطلب مسار العلاقات الثنائية في مرحلتها التأسيسية الأولى، وجاء في ثلاث نقاط رئيسية:

- البدايات الأولى للعلاقات السياسية والقنصلية بين طرابلس وفرنسا (1630 - 1650م).
- النشاط البحري الطرابلسي وردود الفعل العسكرية والتبشيرية الفرنسية (1651 - 1685م).
- تجدد الصراع البحري، والقصف الفرنسي، والاهتمام التجاري والاستكشافي بليبيا (1687 - 1701م).

المطلب الثاني: المرحلة الثانية في العلاقات الطرابلسية – الفرنسية (1711 - 1795م): يسلط هذا المطلب الضوء على تطورات العلاقات خلال عهد الأسرة القرمانلية، مقسماً إلى ثلاث نقاط أساسية:

- تأسيس الدولة القرمانلية والدبلوماسية البحرية في عهد أحمد باشا (1711 - 1745م).
- قوة الأسطول وفرض الهيبة في عهد محمد باشا القرمانلي (1745 - 1754م).
- تدهور العلاقات وفرض المعاهدات المجحفة في عهد علي باشا القرمانلي (1754 - 1794م).

المطلب الثالث: المرحلة الثالثة في العلاقات الطرابلسية – الفرنسية زمن يوسف باشا القرمانلي (1795 - 1805م): يُعالج هذا المطلب ذروة التحولات السياسية والعسكرية في العلاقات الثنائية، ويتكون من النقطتين التاليتين:

- إعادة بناء المكانة البحرية وفرض الإتاوات على الدول الأوروبية في عهد يوسف باشا.
- التحالف الطرابلسي - الفرنسي وتداعيات الحملة الفرنسية على مصر ومالطا.

أهمية البحث:

1. تسليط الضوء على حقبة مفصلية من تاريخ ليبيا الحديث ودراسة التحولات الجيوسياسية للأسرة القرمانلية.
2. فهم طبيعة الصراع الدولي والتنافس البحري بين القوى الأوروبية الكبرى (فرنسا وبريطانيا) للسيطرة على حوض المتوسط.

3. استكشاف آليات الدبلوماسية البحرية الطرابلسية وإيفاد السفراء وإبرام المعاهدات وفرض الإتاوات على الدول الأوروبية.
4. رصد تداعيات الحملة الفرنسية على مصر ومالطا على ولاية طرابلس، وكيفية توظيف الباشوات لسياسة التوازن والازدواجية لحماية استقلال الإيالة.

أهداف البحث:

1- استعراض نشأة وتطور العلاقات السياسية والقنصلية والتجارية والعسكرية بين طرابلس وفرنسا عبر مراحلها المختلفة منذ القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر.

2-تقييم دور المؤسسين والحكام من الأسرة القرمانلية (أحمد، محمد، علي، ويوسف باشا) في إدارة علاقات الإيالة الخارجية وقوتها البحرية.

3-تحليل أسباب وعواقب المواجهات العسكرية المباشرة، مثل القصف الفرنسي لمدينة طرابلس عام 1728م وتداعيات المعاهدات المجحفة والدبلوماسية البحرية.

4-تحديد طبيعة التداخل بين المصالح الطرابلسية والتحولات الكبرى كتداعيات الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت وتأثيرها على استقرار ولاية طرابلس ومنطقة البحر المتوسط.

إشكالية البحث:

تمحورت إشكالية البحث حول طبيعة العلاقات التاريخية والجيوسياسية المزدوجة بين طرابلس الغرب وفرنسا خلال الفترة (1633-1805م)، وكيف تذبذبت هذه العلاقات بين الصدام العسكري، والتحالفات المؤقتة، والنشاط البحري والدبلوماسي. كما تبحث الدراسة في مدى قدرة حكام الأسرة القرمانلية على توظيف سياسة التوازن والازدواجية لحماية استقلال الإيالة وسيادتها في ظل التنافس الاستعماري الأوروبي المحتدم في حوض البحر الأبيض المتوسط.

تساؤلات البحث:

- ما هي الملامح الكبرى لتطور العلاقات السياسية، والقنصلية، والتجارية، والعسكرية بين طرابلس الغرب وفرنسا عبر مراحلها الثلاث المتعاقبة؟
- كيف انعكس مستوى كفاءة حكام الأسرة القرمانلية (أحمد، محمد، علي، ويوسف باشا) على إدارة قوة الأسطول البحري وفرض هيبة الإيالة أو الوقوع تحت وطأة المعاهدات المجحفة؟
- ما هي أبعاد وعواقب المواجهات العسكرية المباشرة، مثل القصف الفرنسي لطرابلس، والتدخلات التبشيرية، والاستطلاعات الجغرافية والاقتصادية للقناصل الفرنسيين؟
- كيف أثرت تداعيات الحملة الفرنسية على مصر ومالطا، والصراع الدولي بين فرنسا وبريطانيا، على توجيه سياسة طرابلس الخارجية حتى عام 1805م؟

فرضية البحث:

تفترض الدراسة أن العلاقات الطرابلسية - الفرنسية لم تكن نمطاً ثابتاً من الود أو العداء، بل حكمتها ديناميكية متغيرة بين القوة البحرية لطرابلس والأطماع الاستعمارية لفرنسا. وتستند هذه الفرضية إلى الركائز التالية:

- توازن القوة والدبلوماسية: مكّن الأسطول البحري والدبلوماسية النشطة (في عهدي أحمد ويوسف باشا) طرابلس من فرض سيادتها وتحصيل الإتاوات.
- استغلال الضعف الداخلي: أدى التراجع السياسي والإداري (في عهد علي باشا) إلى تمكين فرنسا من فرض معاهدات مجحفة.
- الواقعية والحياد الحذر: فرضت التحولات الإقليمية (كالحملة الفرنسية على مصر ومالطا والصراع الفرنسي - البريطاني) على قيادة طرابلس إتباع سياسة توازن براغماتية لحفظ استقلال الإيالة.

منهج البحث:

تأسست الدراسة على المنهج التاريخي كإطار أساسي لتتبع مسار العلاقات الطرابلسية - الفرنسية وتفسير ظواهرها السياسية والعسكرية والدبلوماسية. ولتحقيق أهداف الدراسة، تم التنسيق بين الأدوات الإجرائية التالية:

- الاستقرائي التوثيقي: لجمع المادة التاريخية ورصد التطور الزمني للعلاقات منذ العهد العثماني الأول (1633م) مروراً بالعهد القرمانلي.
- الوصفي: لرصد طبيعة الأحداث بدقة، لا سيما النشاط البحري الطرابلسي وتفاعلاته مع الردود العسكرية والنشاط القنصلي والتبشيري الفرنسي.
- التحليلي النقدي: لتفسير دوافع الأطراف الفاعلة، وتقييم المعاهدات المبرمة، وقياس أثر التحولات الإقليمية كالحملة الفرنسية على مصر ومالطا.

الحدود الزمنية للبحث:

تمتد الحدود الزمنية لهذه الدراسة عبر الفترة (1633 - 1805م)، وقد تم اختيار هذين الحدين لاعتبارات تاريخية ومنهجية دقيقة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بطبيعة العلاقات الطرابلسية - الفرنسية، وتتجلى أسباب اختيار سنة 1633م تُمثل نقطة التحول الفعلية نحو استقرار التمثيل الدبلوماسي والقنصلي وتوثيق العلاقات السياسية والتجارية المنتظمة بين طرابلس الغرب وفرنسا، بعيداً عن مرحلة العشوائية والصدام البحري المطلق، ولكونها السنة التي تم فيها تنظيم المصالح الفرنسية، شهدت هذه الفترة إبرام أولى المعاهدات والاتفاقيات الفعلية التي نظمت تواجد التجار والقناصل الفرنسيين وحماية مصالحهم وملاحتهم في الموانئ الطرابلسية، مما يجعلها البداية الحقيقية والمؤرخة لتأطير العلاقات الثنائية بشكل مؤسسي؛ بينما حدد نهاية البحث في سنة 1805م تُمثل هذه السنة ظهور مسألة التوازن الدولي في منطقة حوض البحر المتوسط بين الأطراف الفاعلة ضمن هذه الدراسة.

الدراسات السابقة:

حظي موضوع العلاقات الطرابلسية الفرنسية باهتمام الباحثين ولعل أبرز هذه الدراسات الآتي:

- **دراسة عتيقة محمد أحمد مختار بعنوان: العلاقات السياسية بين إيالة طرابلس الغرب وفرنسا 1711-1835م**، نشرت في مجلة العلوم الإنسانية والتطبيقية، كلية الآداب والعلوم قصر خيار، جامعة المرقب، في مج8، ع15، لسنة 2020م.

تناولت هذه الدراسة مسار العلاقات السياسية بين إيالة طرابلس الغرب وفرنسا طوال فترة حكم الأسرة القرمانلية. استهلت الباحثة دراستها بالتعريف بالأسرة القرمانلية، وعوامل وصولهم إلى الحكم، والأسباب التي دفعت الدولة العثمانية إلى الاعتراف بحكمهم، إلى جانب استعراض تعاقب حكام هذه الأسرة.

بعد ذلك، ركزت الدراسة على عوامل التقارب الفرنسي الطرابلسي، ومظاهر التمثيل الدبلوماسي بين الطرفين، فضلًا عن تحليل طبيعة العلاقات الثنائية في عهد أبرز حكام هذه الأسرة وهم:

- أحمد باشا القرمانلي.
- محمد باشا القرمانلي.
- يوسف باشا القرمانلي، مع تسليط الضوء على الحملة الفرنسية على مصر وموقف يوسف باشا حيالها.

موضع الاستفادة وموقع الدراسة الحالية:

- **الاستفادة العلمية :**أُفيد من هذه الدراسة في استجلاء بعض الجوانب التفصيلية المرتبطة بطبيعة العلاقات السياسية التي جمعت بين أحمد باشا القرمانلي وفرنسا خلال فترة حكمه.
- **الإضافة الأكاديمية (التميز البحثي) :**على الرغم من الشمولية النسبية التي اتسمت بها دراسة عتيقة مختار في تغطية الحقبة القرمانلية، إلا أنها أغفلت الجذور التاريخية لبداية العلاقات الرسمية بين

إيالة طرابلس الغرب وفرنسا والتي تعود إلى سنة **1633م**؛ وهو الفراغ الزمني والمنهجي الذي تتولى **الدراسة الحالية** تغطيته وتحليله، مما يمنح الموضوع تكاملاً علمياً وأهمية أكاديمية مضاعفة.

- **شلبي هشام وربعي رمزي، "طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الأول"**، مذكرة لنيل درجة الماستر في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة محمد الشريف مساعدية، الجزائر، 2021، 142 صفحة.
- جاءت هذه الدراسة في مقدمة وفصل تمهيدي وأربعة فصول رئيسية؛ حيث تناول الفصل التمهيدي لمحة تاريخية وجغرافية عن إيالة طرابلس الغرب، بينما خصص الفصل الأول لدراسة الأوضاع العامة لطرابلس قبيل الدخول العثماني. واستعرض الفصل الثاني ظروف إلحاق طرابلس بالدولة العثمانية، في حين تناول الفصل الثالث الأوضاع الداخلية في الإيالة خلال العهد العثماني الأول. واختتمت الدراسة بالفصل الرابع الذي بحث في نهاية العهد العثماني الأول (1701-1711م).
- **موضع الاستفادة وموقع الدراسة الحالية:**
- **الاستفادة العلمية :**أُفيد من هذه الدراسة في الإحاطة بملابسات البدايات الأولى للتواجد العثماني في طرابلس الغرب، وتحديداً استجلاء طبيعة الحملات البحرية الأولى التي شنتها الدول الأوروبية – وعلى رأسها فرنسا – خلال عهد البكلربكات منذ الربع الأول من القرن السابع عشر (تحديداً نحو عام 1630م).
- **الإضافة الأكاديمية (التميز البحثي) :**على الرغم من شمولية هذه الدراسة لمرحلة العهد العثماني الأول وأبعادها السياسية والعسكرية، إلا أنها لم تتطرق بالتفصيل المنهجي والمستقل لموضوع العلاقات الثنائية بين طرابلس الغرب وفرنسا خلال الإطار الزمني والموضوعي الذي تعالجه **الدراسة الحالية**، مما يبرز الحاجة الملحة لهذه الدراسة لسد تلك الثغرة التاريخية.

المدخل:

اقتصرت العلاقات الخارجية لطرابلس قبيل عام 1633م بشكل رئيس على بعض القوى الإقليمية؛ كالدولة العثمانية ومحيطها الإفريقي المجاور، إلى جانب بعض القوى الخارجية كإسبانيا وفرسان مالطا الذين احتلت قواتهم قلعة طرابلس في الفترة (1510–1551م). وقد أُنتهي هذا الوجود الصليبي عام 1551م بحملة بحرية كبرى قادها القائد العثماني سنان باشا بمساندة درغوت باشا، تمكنا خلالها من محاصرة القلعة وإرغام فرسان مالطا على الانسحاب في 9 أغسطس 1551م [1].

وبدأت طرابلس إثر هذا الحدث التاريخي مرحلة الحكم العثماني المباشر، حيث أُسندت إدارة الإيالة إلى والٍ (باشا) يمثل السلطان العثماني في الآستانة. وكان من أبرز المحطات التاريخية لطرابلس قبيل هذه الفترة عهد البكلربكوات (1551–1606م)؛ والذي شهد استقراراً سياسياً نسبياً بفعل هيبة الدولة العثمانية وقوة أسطولها في البحر المتوسط وإحكام سيطرتها على الإنكشارية. وفي هذا الإطار، تولى القائد مراد آغا حكم الإيالة (1551–1555م)، متخذاً من تاجوراء قاعدة لشن هجماته ضد الغزاة [2].

ومن أبرز الهجمات التي شهدتها الإيالة في عهده، إخفاق حملة فرسان مالطا على زوارة في أغسطس 1552م بقيادة "لافاليت" (La Valette) – الذي أصبح لاحقاً أستاذاً أعظم للمنظمة –؛ إذ تصدى لها مراد آغا وقواته ببراعة، مُكبدين الحملة خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، مما كرّس مراد آغا كحاكم قوي لطرابلس الغرب [3].

ومن أبرز المحطات التاريخية التي شهدتها إيالة طرابلس وأثّرت في علاقاتها الخارجية مع القوى الأوروبية، ما شهده عهد درغوت باشا (1556–1565م)؛ حيث جُهزت حملة صليبية بقيادة الأدميرال الإيطالي جيوفاني أندريا دوريا (Giovanni Andrea Doria) في 10 فبراير 1560م لغزو جزيرة جربة. وهبّ درغوت باشا بقواته براً وبحراً تنفيذاً لأوامر السلطان سليمان القانوني لردع الحملة وإعادة

فرض السيطرة العثمانية على الجزيرة. ورغم تمكّن الحملة الأوروبية في مارس من الاستيلاء على الجزيرة وفرض الضرائب على أهاليها، أرسل درغوت باشا مستنجداً بالسلطان، فأمده فوراً بقوة بحرية بقيادة بيالي باشا، حاصرت قلعة جربة التي كانت تضم قوات إيطالية وفرنسية وإسبانية [4]، وبفضل هذا الدعم حسم درغوت باشا المواجهة لصالح الإيالة [2].

وفي سياق الأحداث الخارجية المؤثرة، أصدر السلطان سليمان القانوني أوامره في أبريل 1565م بمحاصرة جزيرة مالطا؛ المعقل الرئيس لمنظمة الفرسان التي شكلت تهديداً مستمراً للملاحة العثمانية في شرق البحر المتوسط. وشاركت طرابلس بحملة بحرية كبرى قادها درغوت باشا استمرت ثلاثة أشهر، وقُتل خلالها درغوت باشا، فنُقل جثمانه إلى طرابلس ودُفن في مسجده في 24 يونيو 1565م [5].

تعاقب على حكم طرابلس بعد درغوت باشا ولاةٌ يفتقرون إلى الخافية والخبرة السياسية، وتفشت في عهودهم الفوضى والمحسوبية والظلم، مما أذكى الصراعات بين الجند. وأدى هذا التردي الإداري إلى بروز نفوذ الجند (الإنكشارية) الذين هيمنوا على مقاليد الحكم وجرّدوا السلطات المحلية والأهالي من نفوذهم خلال الفترة (1595–1630م) [1]. وعقب هذه المرحلة، تعرضت طرابلس لحملات أوروبية متكررة رداً على نشاط بحريتها ضد السفن الأوروبية، وهو النشاط الذي أطر علاقاتها الدولية، ولا سيما مع فرنسا التي تعاظم حضورها في المتوسط بفضل علاقاتها المتميزة مع الدولة العثمانية وتنافسها البحري مع القوى الأوروبية الأخرى. ويتضح مما سبق: أن إيالة طرابلس الغرب شهدت تحولاً تاريخياً مفصلياً بتحريرها من الاحتلال الصليبي عام 1551م وانضمامها للحكم العثماني المباشر، حيث مرت بعهد بكلربكوات قوي اتسم بالاستقرار بفضل قادة بارزين كمراد آغا ودرغوت باشا اللذين تصديا بنجاح للحملات الأوروبية (على زوارة وجربة ومالطا). غير أن الإيالة انتكست لاحقاً جراء ضعف الولاة وتفشي الفساد وسيطرة الانكشارية، مما يعكس دور الانقسام الداخلي والنشاط البحري الإقليمي في تعريض طرابلس لهجمات أوروبية جديدة وإجبارها على إعادة تشكيل علاقاتها الخارجية.

شَكّلت هذه التحولات الداخلية والإقليمية – بدءاً من استعادة طرابلس لسيادتها وتثبيت حكمها العثماني، وصولاً إلى مرحلة الفوضى والانكفاء التي تلاها تعاظم نشاط البحرية الطرابلسية – الأرضية الخصبة التي أعادت تشكيل العلاقات الخارجية للإيالة مع القوى البحرية الأكبر في المتوسط. وفي ظل هذا الواقع المتذبذب بين القوة والاضطراب، أضحت الإيالة محط أنظار المملكة الفرنسية الساعية لحماية مصالحها التجارية والملاحية. ومن هنا، لم تكن سنة 1633م مجرد محطة زمنية عابرة، بل مثّلت البداية الفعلية لمرحلة جديدة من العلاقات الطرابلسية - الفرنسية الرسمية، حيث انتقل الطرفان من التفاعلات غير المباشرة والتصادمات المتفرقة إلى إطار المواجهة الدبلوماسية والعسكرية المباشرة التي أطّرتها معاهدات التحالف والشروط المجحفة على حدّ سواء.

المطلب الأول: المرحلة الأولى في العلاقات الطرابلسية – الفرنسية

أولاً: البدايات الأولى للعلاقات السياسية والقنصلية بين طرابلس وفرنسا (1630–1650م):

بدأت العلاقات الطرابلسية - الفرنسية تتبلور بوضوح في عهد الوالي محمد باشا الساقزلي (1633–1649م)، نتيجة انتعاش نشاط البحرية الطرابلسية بفضل الدعم والتشجيع اللذين قدمهما الساقزلي لأسطوله. ومن أبرز العمليات البحرية التي جسّدت القوة البحرية للإيالة، تجهيزه سبعة مراكب في ربيع عام 1634م، أُخرجت ثلاثة منها في يونيو بقيادة كبار قادة البحر، فاستولت على سفينتين فرنسيتين محملتين بالبضائع قادمتين من إزمير. غير أن هذه الحملة انتهت بخسائر للجانب الطرابلسي إثر تعرضها لهجوم من سفن

فرسان مالطا، أسفر عن أسر سفينتين طرابلسيتين، ومقتل عدد من رؤوس البحر (منهم الشريف ريس)، وأسر 330 شخصاً، كان من بينهم الريس مراد [6].

في مقابل ذلك، يذكر شارل فيرو [4] في كتابه "الحوليات الطرابلسية": "أن أول تواصل مباشر بين الإيالة وفرنسا حدث في عهد الشريف مصطفى داي (1610–1643م)، حين كانت طرابلس تضم أسرى أوروبيين من بينهم فرنسيون أُسروا رغم معاهدة التحالف القائمة بين ملك فرنسا والسلطان العثماني. وقد رفع الملك لويس الثالث عشر (Louis XIII) شكوى إلى السلطان العثماني مراد الرابع (1623–1640م)، فأمر الأخيرُ الدايَ بإطلاق سراح الرعايا الفرنسيين. وأوفد الملك الفرنسي مبعوثاً يُدعى "بيرانجييه" (Bérenger)، فسلّمه الداي مئة أسير فرنسي وتعهد رسمياً باحترام السفن والرعايا الفرنسيين مستقبلاً. وعند مغادرة المبعوث الفرنسي، ترك السيد "دي مولان" (De Moulin) في طرابلس قنصلاً لفرنسا، وتُعد هذه الخطوة البداية الفعلية للتمثيل الدبلوماسي الرسمي بين الطرفين عام 1630م".

ويؤكد برنيا [3] هذه الحادثة مشيراً إلى إقامة علاقات ودية عقب استقبال مصطفى داي للسفير الفرنسي بالحفاوة والتكريم، وتأسيس أول قنصلية فرنسية برئاسة "دي مولان" عام 1630م. وبذلك تكون العلاقات الرسمية بين طرابلس وفرنسا قد انطلقت في عهد الشريف داي نتيجة تزايد عمليات البحرية الطرابلسية ضد السفن الأجنبية.

بيد أن هذا التفاهم لم يدُم طويلاً؛ إذ خرقت طرابلس الاتفاق عقب استيلاء بحريتها على سفينة فرنسية، لتشهد العلاقات توتراً استمر حتى عام 1634م، حين أبدى محمد باشا الساقزلي اهتماماً بإعادة فتح القنصلية الفرنسية في طرابلس خلال لقائه بالكابتن "جوفاني بو" (Giovanni Bo)، الذي زار طرابلس لرعاية المصالح التجارية [3].

ولم تقتصر التفاعلات على الجانب السياسي، بل امتدت إلى المجال التجاري الذي أسهم في تهدئة الأجواء عام 1640م؛ حيث استقر بطرابلس التاجر الفرنسي "بايون" (Bayon)، ونظراً لذكائه ونفوذه الواسع، مارس صلاحيات شبيهة بمهام القنصل لحماية التجارة الفرنسية [6]. كما حرصت فرنسا في عهد الملك لويس الثالث عشر على تعزيز الوجود الديني في طرابلس عبر دعم الإرساليات التبشيرية، مستفيدة من مرسوم البابا أوربانوس الثامن (Urbanus VIII) الصادر في 6 سبتمبر 1642م لافتداء الأسرى الأوروبيين في شمال إفريقيا. ووصل إلى طرابلس الأب "كانتو" والأب "باسيفيك"، واستأجرا بيتاً تحول إلى كنيسة صغيرة؛ حيث نجح الأول في افتداء 50 أسيراً ونقلهم إلى أوروبا، بينما كسب الثاني ثقة الطرابلسيين بملامسته لمهنة الطب ومعالجة المرضى من الأسرى النصارى والأهالي المسلمين دون تمييز [4].

يتضح ممّا سبق أن تطورات العلاقات الطرابلسية ـ الفرنسية في النصف الأول من القرن السابع عشر قامت على ديناميكية معقدة وازنت بين الصراع البحري والدبلوماسية؛ ففي حين أدى النشاط البحري الطرابلسي إلى توترات متكررة، فرَضت المصالح التجارية والدينية ـــ كافتداء الأسرى وتعيين القناصل ونشاط الإرساليات ـــ التوجّه نحو محاولات متجددة لإرساء قواعد استقرار دبلوماسي وتجاري.

ثانياً: النشاط البحري الطرابلسي وردود الفعل العسكرية والتبشيرية الفرنسية (1651–1685م):

حرصت القوى الأوروبية الكبرى على إقامة علاقات متوازنة مع إيالة طرابلس لحماية سفنها ورعاياها عبر إبرام معاهدات السلم، التي غالباً ما كانت قصيرة الأجل؛ إذ كان الطرابلسيون إذا هادنوا دولةً كثفوا

غاراتهم البحرية على دول أخرى — ولا سيما القوى الأصغر مثل البندقية ونابولي وصقليّة — باعتبار أن النشاط البحري يمثل أحد الموارد الأساسية للإيالة [7].

واستمراراً للدور الذي اضطلعت به الإرساليات التبشيرية في رعاية الأسرى بشمال إفريقيا، وصل إلى طرابلس عام 1654م الراهب "يوحنا دي بونتي" (Jean de Ponte) قادماً من مدينة نيس الفرنسية. ونشط دي بونتي في ممارسة الطقوس والتبشير داخل سجون الأسرى، إلا أن محاولته إرجاع بعض القادة البحريين الذين اعتنقوا الإسلام إلى النصرانية أدت إلى مقتله [4].

وخلال الفترة (1658–1667م)، سعى الوالي عثمان باشا الساقزلي إلى تحسين علاقات الإيالة مع القوى الأوروبية، وفي مقدمتها فرنسا وإنجلترا اللتان تكبدتا خسائر فادحة في أرواحهما وتجارتهما البحرية جراء التنافس بينهما واستغلال البحرية المغاربية (الطرابلسية والجزائرية) لهذا الصراع بالإغارة المستمرة على سفنهما. ودفع هذا الوضع القوى الأوروبية إلى توجيه حملات بحرية خاطفة لردع بحرية الشمال الإفريقي وحماية تجارتها [3].

ومن أبرز هذه المواجهات العسكرية، وصول حملة بحرية فرنسية إلى ميناء طرابلس في 9 أغسطس 1669م بقيادة "دالميراس" (D'Almeras)، الذي هدد بقصف القلعة ومحاصرة المدينة، مما اضطر عثمان باشا للرضوخ لشروطه وإطلاق سراح 25 أسيراً فرنسياً بمجهودات القساوسة. وفي 15 أغسطس 1672م، عاود الأسطول الفرنسي ظهوره في المياه الطرابلسية بست قطع حربية بقيادة "دي مارتيل" (De Martel) للحد من استهداف السفن التي ترفع العلم الفرنسي [3]، مما دفع عثمان باشا مجدداً إلى المهادنة وتجديد الاتفاقيات.

وفي هذه الأثناء، أذن عثمان باشا للقنصل الفرنسي "إتيان" (Estienne) عام 1669م باستقدام راهبين من "منظمة الفداء" (رهبان الرحمة) هما: "يوحنا بلانتي" (Jean Plantie) و"فكتور دي سان بول" (Victor de Saint-Paul)، اللذين نجحا في افتداء 25 أسيراً ونقلهم إلى فرنسا. كما خاطب القنصل الفرنسي البابا "كليمنت العاشر" (Clement X) لإيفاد إرساليات جديدة لرعاية الأسرى الكاثوليك [4]؛ إذ استهدفت فرنسا من هذه الترتيبات حماية نفوذها ورعاياها ودعم الوجود الكاثوليكي لمنع الأسرى من اعتناق الإسلام.

وشهدت طرابلس اضطرابات داخلية أدت إلى مقتل عثمان باشا الساقزلي في 28 سبتمبر 1672م. ولم تحل هذه التغيرات دون استمرار عمليات البحرية الطرابلسية؛ ففي عام 1676م استولى البحارة الطرابلسيون على سفينتين فرنسيتين في ميناء قبرص. ورداً على ذلك، أوفدت فرنسا الضابط البحري "دي فالير" (De Vallière) لإبرام اتفاقية تتضمن سلامة الملاحة الفرنسية، غير أن المحاولة باءت بالفشل. وأمام فداحة الخسائر، رفعت قيادة البحرية الفرنسية مذكرة إلى الملك لويس الرابع عشر (Louis XIV) تصف فيها قوة البحرية الطرابلسية وتشتكي من نقص عديد السفن الفرنسية المحاربة في المنطقة [7].

وأمام استمرار التوتر، أرسلت فرنسا أسطولاً حربياً عام 1680م بقيادة الأميرال "دوكين" (Abraham Duquesne) لمعاقبة البحارة الطرابلسيين. وانفصلت عن الأسطول فرقة بحرية بقيادة "المركيز دي جوفرفيل" اشتبكت في المياه اليونانية مع ست سفن طرابلسية في معركة ضارية انتهت بهزيمة السفن الطرابلسية. وإثر ذلك، أُرغمت طرابلس في 27 نوفمبر 1681م على توقيع اتفاقية نصت على إعادة الأسرى الفرنسيين واحترام السفن التجارية الفرنسية، وتوجت بافتتاح قنصلية فرنسية دائمة في طرابلس [7]. وبحسب الباحث الإيطالي إيتوري روسي (Ettore Rossi)، حددت معاهدة 1681م تقاضي الرعايا

الفرنسيين أمام الديوان بحضور القنصل، وكفلت للقنصل ممارسة الشعائر الدينية ورفع العلم الفرنسي على مقر قنصليته وسفينته [6].

ولضمان تنفيذ المعاهدة، أوفدت باريس القنصل "دي لا مادالين" (De La Madeleine)، بيد أن مهمته تعثرت إثر تجدد خرق الاتفاقية والاستيلاء على سفينة فرنسية. فتكررت الحملات التأديبية الفرنسية؛ حيث قُصفت طرابلس عام 1683م، ثم تلتها حملة أخرى عام 1685م بقيادة الأدميرال "دِستري" (D'Estrées) الذي أمطر طرابلس بالقنابل، مما أرغم باشا طرابلس على خوض المفاوضات وتوقيع معاهدة يوليو 1685م. وقد نصت المعاهدة على: إطلاق سراح جميع الأسرى النصارى البالغ عددهم 1200 أسير، وتعيين السيد "مارتان" (Martin) قنصلاً مؤقتاً لفرنسا، وتأكيد التزام الطرفين بحالة السلم [8].

تُبرز هذه التطورات طبيعة العلاقات المضطربة بين طرابلس وفرنسا خلال عهد عثمان باشا الساقزلي وما تلاه؛ حيث اتسمت بتصاعد غارات البحرية الطرابلسية مقابل حملات عسكرية وضغوط فرنسية صارمة (كحملات دالميراس، ودي مارتيل، ودوكين، ودِستري). ورغم إبرام اتفاقيات هشة وافتتاح قنصلية فرنسية دائمة، فإن التجاوزات المتكررة أبقت حالة الصراع قائمة، حتى حسمتها فرنسا بفرض معاهدة 1685م المشددة لإخضاع الإيالة للسلام الملاحي.

ثالثاً: تجدد الصراع البحري والقصف الفرنسي والاهتمام التجاري والاستكشافي بليبيا (1687–1701م):

استمرت حالة الهدوء النسبي بين البلدين حتى تولى محمد باشا الملقب بـ "شايب العين" حكم طرابلس (1687–1701م)؛ إذ أولى الأسطول البحري عناية خاصة وشجع نشاطه، مكرساً قيادته للقائد "خليل قره داغلي". وفي عام 1692م، استولى قره داغلي على سفينة فرنسية ناقضاً اتفاق الصلح المبرم مع فرنسا [9]. وعندما احتج القنصل الفرنسي "كلود لومير" (Claude Lemaire) على هذا الخرق، زُفّ إلى السجن بأمر من الباشا انتقاماً من الشروط القاسية التي سبق أن فرضها الأدميرال "دِستري" على الطرابلسيين [3].

ورداً على ذلك، أوفدت فرنسا أسطولاً حربياً مؤلفاً من 15 سفينة ضخمة، وصل مياه طرابلس ليلاً وأمطر المدينة بالقنابل [9]. وأسفر هذا القصف عن إرغام طرابلس على تجديد الصلح والتعهد بالالتزام بالمعاهدات السابقة، وذلك في 5 يوليو 1693م [3].

ولم تتوقف التفاعلات الفرنسية عند الحدود العسكرية والدبلوماسية، بل اتجهت باريس نحو جمع معلومات جغرافية وأثرية واقتصادية دقيقة عن الإيالة عبر تقارير قناصلها وممثليها. وفي هذا السياق، أسهمت التقارير الواردة عن القنصل "كلود لومير" في كشف طبيعة المناطق الداخلية لطرابلس؛ إذ أشار إلى اتساع رقعة البلاد جنوباً باتجاه أقاليم تاورغاء، وبني وليد، وسوكنة، موضحاً أن واحة أوجلة تبعد عن طرابلس مسيرة 17 يوماً. كما رصد لومير النشاط التجاري للإيالة، مؤكداً وجود حركة تجارية نشطة مع أقاليم "بورنو" و"أغاديز"، مشيراً إلى أن باشا طرابلس كان يسيّر مرتين سنوياً قافلة تجارية إلى فزان تضم نحو مئة جمل محملة بالخرز والمنسوجات الفاخرة والمعادن، لمبادلتها بالتبر (برادة الذهب) والتوابل والرقيق. وقد تعززت هذه البيانات التقييمية بتقرير أعده المبعوث الفرنسي "دي لا لاند" (De La Lande) لوزارته عام 1696م [3]؛ حيث أغرت هذه الثروات القوافلية فرنسا بالحفاظ على علاقاتها مع طرابلس لمراكمة الأرباح التجارية، ورسم مخططات مستقبلية لتعزيز نفوذها والتمهيد للتغلغل في المنطقة.

يُبيّن هذا الحدث نهاية عهد محمد باشا "شايب العين" باتساع نطاق المواجهة البحرية إثر تجدد غارات الأسطول الطرابلسي وقصف الأسطول الفرنسي لطرابلس عام 1693م لإجبارها على احترام المعاهدات. كما يكشف التحول الاستراتيجي في السياسة الفرنسية؛ إذ لم تعد تقتصر على الأدوات العسكرية والدبلوماسية، بل استغلت السلك القنصلي لجمع بيانات جغرافية وتجارية دقيقة عن الداخل الليبي وطريق القوافل الصحراوية، بهدف تحقيق كاسب اقتصادية والتأسيس لمشروع استعماري مستقبلي في المنطقة.

المطلب الثاني: المرحلة الثانية في العلاقات الطرابلسية-الفرنسية خلال الفترة(1711-1795م)

أولا: تأسيس الدولة القرمانلية والدبلوماسية البحرية في عهد أحمد باشا (1711 - 1745م):

دخلت ليبيا مع قيام الأسرة القرمانلية طوراً جديداً في سياستها الخارجية تجاه القوى الأوروبية، وإن ظل النشاط البحري حافظاً لمساره التقليدي. وتنتسب هذه الدولة إلى مؤسسها أحمد باشا القرمانلي [9]، الذي ينحدر من أصل تركي استقرت أسرته بطرابلس. وقد تدرج أحمد القرمانلي في مناصب عسكرية عدة، فكان قائداً لمنطقة المنشية في عهد خليل باشا (1701–1704م) [10]، قبل أن يستولي على الحكم ويعلن ولاءه للسلطان العثماني أحمد الثالث (1703–1730م)، فنال منه رتبة الباشاوية وتثبيتاً رسمياً على الإيالة [11].

وتدعيماً لهذا الطور السياسي الجديد، تميز عهد أحمد القرمانلي بتأسيس دبلوماسية رسمية مع الدول الأوروبية؛ إذ دأب في سنوات حكمه الأولى على إيفاد سفراء لمهمات خاصة محددة للتفاوض وعقد المعاهدات باسم الباشا وحكومته. وكان من أبرز هؤلاء السفراء "محمد الخوجة" عام 1718م، الذي يُعد أول سفير يمثل ليبيا — وربما العالم العربي — لدى البلاطات الأوروبية في العصر الحديث، وتوالت بعده السفارات الطرابلسية إلى العواصم الأوروبية وفق توافقات ودية [12].

وإلى جانب الممارسة الدبلوماسية، أولى أحمد باشا اهتماماً كبيراً بتحديث الأسطول البحري لكونه الركيزة الأساسية لفرض سيادة الإيالة على جانب واسع من حوض المتوسط، وإملاء الشروط على القوى الأوروبية وفي مقدمتها فرنسا [13]. وقد عمل على زيادة السفن السريعة وأعلن رعايته الصريحة للنشاط البحري [3]، وتُنسب إليه مقولته المشهورة المقيدة في مذكرات الآنسة توللي (Miss Tully) [14]: "إن البحارة الطرابلسيين ولدوا بحارة ولا سبيل لكسب عيشهم بغير ذلك، وعلى المسيحيين أن يكونوا دائماً على حذر حتى في أوقات السلم".

وتأرجحت العلاقات الطرابلسية - الفرنسية في عهده بين التهدئة والتصادم؛ ففي عام 1713م احتدم التوتر عقب استيلاء السفن الطرابلسية على سفينة فرنسية محملة بالزيت واقتيادها إلى طرابلس. وأمام رفض أحمد باشا احتجاج القنصل الفرنسي "إكسكوفيه" (Excoffier)، أبلغ الأخير حكومته، فأصدرت باريس أوامرها إلى القبطان "دي بونييه" (De Bonnier) قائد البارجة "لاديامان" (Le Diamant) بالتوجه إلى طرابلس لاستعادة السفينة ومحاسبة البحارة [13]. وفي المقابل، أوفد أحمد باشا مبعوثاً إلى باريس لتسوية التجاوزات منذ عام 1714م، مما أسفر عن توقيع اتفاقية سلام في 4 يونيو 1720م تأكيداً لمعاهدة 1693م [3].

غير أن التطورات الدولية أثرت على هذا التفاهم؛ إذ أُرغمت ولايات الشمال الإفريقي بموجب معاهدة يوليو 1718م الصادرة عن الباب العالي على مهادنة النمسا والبندقية، مما أضر بالتجارة الفرنسية التي كانت تفضل استمرار حالة العداء بين الإيالات والنمسا. وعاودت البحرية الطرابلسية غاراتها؛ ففي عام 1722م استولى الطرابلسيون على سفينة فرنسية محملة بالحرير بقيادة "أوليف دي مارسيليا" (Ollive

de Marseille). ورغم مطالبة القنصل الفرنسي "بروش" (Broch) باستردادها، رفض الباشا محتجاً بأنها سفينة جنوية وتشكل غنيمة شرعية [15].

وأمام انسداد أفق التفاوض، أرسلت فرنسا أسطولاً بحرياً في مايو 1724م بقيادة "نيكولا دي غراندیري" (Nicolas de Granderye) لإطلاق سراح الربان أوليف، غير أنه عاد دون تحقيق هدفه [7]. واستغلالاً للاضطرابات الداخلية التي واجهها الباشا، شن الأسطول الفرنسي أواخر عام 1727م حملة بقيادة "دي مين" (De Meynes)، تلتها حملة أشد ضراوة في يوليو 1728م بقيادة الأميرال " دي غراندبريه" (De Grandpré)، الذي أمطر طرابلس بالقنابل خلال الفترة من 20 إلى 26 يوليو، متسبباً في أضرار بالغة بالمدينة[6]. وأدى ذلك إلى انقطاع العلاقات، ورد الطرابلسيون بالاستيلاء على سفينة فرنسية في ميناء طرابلس وأسر تسعة من بحارتها، فضلاً عن الاحتجاز المتكرر لزوارق فرنسية قرب مصراتة وبنغازي [3].

وقد وثّق المؤرخ حسن الفقيه حسن [11] هذه الحملة بقوله: "قدمت علينا مراكب الفرنسيين يوم الأربعاء 19 ذو القعدة 1140هـ... وظلوا أمام قلعة طرابلس حتى ليلة الرابع من العيد حيث بدأ القصف". واستهدف القصف الفرنسي الذي استمر عدة أيام إرغام أحمد القرمانلي على الاستسلام وتقديم تعهدات صريحة باحترام المعاهدات [3، 15].

وعندما قدم القائد "دي غراندیري" شروطه للباشا، والتي تتلخص في: دفع 20 ألف قرش كتعويض، وإطلاق سراح الأسرى النصارى، وتجديد المعاهدات؛ جاء رد أحمد باشا حازماً بقوله: "إن نيتنا في الصلح صادقة، أما دفع الأموال فلا أحد هنا يوافق عليه ولا سبيل لنيل قرش واحد... وأما القنابل فلا نخشاها، وبإمكانكم القصف كما تشاؤون، ولكن إن فعلتم فلن نبرم معكم صلحاً أبد الدهر" [4]، مما يبرز حنكة الباشا وشجاعته.

واضطرت الحملة الفرنسية للانسحاب أمام صمود الباشا وتدهور الأحوال الجوية [15]. ورغبة من الطرفين في إنهاء النزاع وإعادة الحركة التجارية، كُلّلت المفاوضات في 9 يونيو 1729م بتوقيع معاهدة سلام شاملة تتألف من 39 مادة، نصت على إطلاق سراح الأسرى (ومنهم 20 عبداً كاثوليكياً)، وتنظيم الملاحة والتجارة. وأكدت المادة 39 سريان المعاهدة لمدة مئة عام، وشكلت هذه المعاهدة نموذجاً احتذت به إنجلترا (1730م) ومملكة نابولي (1742–1744م) في توقيع معاهدات مماثلة مع أحمد باشا [8].

تُبرز هذه التطورات مرحلة تأسيس الدولة القرمانلية في طرابلس على يد أحمد باشا، الذي أحدث نقلة نوعية في العلاقات الخارجية عبر إرساء دبلوماسية رسمية وإيفاد أول سفير عربي إلى البلاط الأوروبي عام 1718م. واعتمد الباشا على قوة أسطوله البحري لفرض سيادته وموارده، مما أدى إلى تأرجح العلاقات مع فرنسا بين الود والعداء وصولاً إلى القصف الفرنسي الشديد عام 1728م. ومع ذلك، أبدى أحمد باشا صلابة سياسية برفض الشروط التعسفية، لتنتهي الأزمة بإبرام معاهدة سلام شاملة عام 1729م، مهدت الطريق لعقد اتفاقيات مماثلة مع قوى أوروبية أخرى كإنجلترا ونابولي.

ثانياً: قوة الأسطول وفرض الهيبة في عهد محمد باشا القرمانلي (1745–1754م):

استطاع أحمد باشا القرمانلي بناء دبلوماسية متماسكة وثّقت علاقات الإيالة مع القوى الأوروبية، وانتهى عهده إثر إصابته بمرض فقدان البصر، ليُتوفى في 10 شوال 1158هـ / 1745م. وعقب وفاته، آلت السلطة إلى نجله محمد باشا القرمانلي (1745–1754م)، الذي كرس جهوده لتحديث الجيش وتقوية الأسطول

البحري وزيادة عدد سفنه؛ حتى غدت طرابلس مرهوبة الجانب في الموانئ والمياه الإقليمية لجنوب أوروبا. وقد أكد الأنصاري ذلك في كتابه "المنهل العذب" بقوله: "جدد الأساطيل، وكان أمراء الأساطيل ذوي شجاعة وإقدام، يهاجمون بمراكبهم سفن الأعداء في سواحل البحر الأبيض المتوسط، فيقتلون ويأسرون، فاكتسب بذلك شهرة واسعة" [16].

وبفضل هذا الحزم البحري، سارعت أغلب القوى الأوروبية — وفي مقدمتها فرنسا — إلى تجديد معاهداتها مع الإيالة؛ حيث أُبرمت اتفاقية جديدة عام 1752م عبر القنصل الفرنسي "سيليت" (Seilhette). وقد أكدت الاتفاقية على الالتزام بشروط المعاهدات السابقة، وفرضت عقوبات صارمة تصل إلى الإعدام بحق رؤساء البحرية الذين يسيئون استخدام حق تفقد السفن التجارية الفرنسية. وإثر هذه التفاهمات، أوفدت فرنسا المبعوث "دي غورناي" (De Gournay) لمتابعة التبادل التجاري وتنقيتها لسلالات الخيل عبر تهجين الخيول البرقية مع الخيول الفرنسية [3].

وأثارت هذه المعاهدات حفيظة بعض المغامرين والطامحين، فقاموا بتمرد ليلة 30 يوليو 1752م للإطاحة بحكم محمد باشا، غير أن تحركهم باء بالفشل لعدم تجاوب الأهالي معهم. وانتهى عهد محمد باشا بوفاته في 24 يوليو 1754م، ليخلفه نجله علي باشا القرمانلي في حكم البلاد [17].

يبيّن هذا النص كيف واصل محمد باشا القرمانلي نهج والده في تعزيز القوة العسكرية والبحرية للإيالة، مما فرض هيبتها الدولية وأجبر فرنسا على تجديد معاهداتها عام 1752م وفق شروط حازمة. وانعكست هذه الهيبة البحرية في فتح آفاق التبادل التجاري والاستثماري (كالاستفادة من الثروة الخيلية)، وعلى الرغم من محاولات إذكاء الفتن الداخلية لزعزعة الحكم، فإن ثبات السلطة والتفاف الأهالي كفلا للإيالة استقراراً سياسياً وبحرياً حتى وفاة الباشا وتولي نجله علي باشا الحكم.

ثالثاً: تدهور العلاقات وفرض المعاهدات المجحفة في عهد علي باشا القرمانلي (1754–1794م):

شهدت العلاقات الطرابلسية – الفرنسية تحولاً سلبياً إثر تولي علي باشا القرمانلي مقاليد الحكم في طرابلس (1754–1794م)؛ إذ استغلت القوى الأوروبية قلة خبرته الحاكمة وقلة حيلته لفرض نفوذها البحري والسياسي. وعقب استيلاء البحرية الطرابلسية على سفينة جنوية، سيرت فرنسا حملة بحرية عام 1766م بقيادة "بوفريمون" (Beauffremont) مكونة من ثماني سفن حربية، وأرغمت علي باشا على توقيع معاهدة تضمنت خمس تعديلات مجحفة؛ حظرت على الإيالة القيام بأي أعمال عسكرية ضد السفن الفرنسية أو سفن الدول الواقعة تحت حمايتها [7].

وتفاقم ضعف موقف الإيالة مع اندلاع الحرب الإنجلو–فرنسية إبان حرب الاستقلال الأمريكية (1776–1783م)؛ حيث سعى كلا الطرفين المتصارعين إلى استمالة وتسليح بحارة إيالات الشمال الإفريقي واستخدامهم ضد الطرف الآخر. فاتخذت فرنسا وإنجلترا من هذا التنافس ذريعة للتدخل المباشر وفرض الشروط القاسية على ولاية طرابلس وغيرها من إيالات المنطقة، مما أدى إلى تدهور حاد في الأوضاع السياسية والاقتصادية للإيالة.

وتُعد الاتفاقية المبرمة بين علي باشا وفرنسا عام 1781م من أبرز المعاهدات التي تكبلت بها الإيالة وأضرت بسيادتها؛ حيث نصت موادها على:

المادة الأولى: منح القنصل الفرنسي الأسبقية والتقدم على بقية قناصل الدول.

المادتان الثانية والثالثة: ضمان السلامة الكاملة لرعايا ملك فرنسا وحمايتهم.

المادة الرابعة: التزام طرابلس بحجز السفن الحربية التابعة للدول المعادية لفرنسا مدة 48 ساعة بعد مغادرة السفن التجارية الفرنسية للميناء.

المادة الخامسة: تقييد مدة حجز السفن الفرنسية بألا تتجاوز ثمانية أيام في حالات حظر الإبحار العام [15].

أسهمت هذه المعاهدة بشكل مباشر في إضعاف المكانة السياسية والبحرية لطرابلس، ودفعت البلاد نحو أزمات اقتصادية واضطرابات داخلية حادة انتهت بآيلولة الحكم لاحقاً إلى يوسف باشا، الابن الثالث لعلي باشا القرمانلي.

يوضح هذا العرض التحول السلبي الحاد في مسار العلاقات الطرابلسية – الفرنسية خلال عهد علي باشا القرمانلي؛ حيث أدى حداثة سنه وقلة خبرته إلى استغلال فرنسا للظروف الدولية والإقليمية وفرض معاهدات مجحفة (كحملة 1766م واتفاقية 1781م) قيدت حركة الأسطول الطرابلسي وأسقطت جزءاً من سيادته. وقد زاد الصراع الإنجلو–فرنسي من حدة هذا التدهور السياسي والاقتصادي، مما أضعف السلطة المركزية ومهد الطريق لاندلاع الاضطرابات الداخلية وصولاً إلى عهد يوسف باشا القرمانلي.

المطلب الثالث: المرحلة الثالثة في العلاقات الطرابلسية – الفرنسية زمن يوسف باشا القرمانلي (1795–1815م)

أولاً: إعادة بناء المكانة البحرية وفرض الإتاوات على الدول الأوروبية في عهد يوسف باشا:

شَكّل تولي يوسف باشا القرمانلي مقاليد الحكم بداية مرحلة حاسمة في تاريخ طرابلس الحديث؛ إذ شهدت البلاد استقراراً داخلياً نسبياً، وانعطافة تاريخية نحو تحسن شامل في مختلف المجالات. كما ارتفعت الأهمية الجيوسياسية للإيالة نتيجة موقعها الاستراتيجي، وسط تحولات دولية واحتدام التنافس بين القوى البحرية الأوروبية للسيطرة على التجارة والملاحة في حوض البحر الأبيض المتوسط [8].

ونجح يوسف باشا القرمانلي في إعادة بناء القوة البحرية للإيالة وفرض سيادتها، مستغلاً التنافس الاستراتيجي في حوض المتوسط؛ إلا أن تصاعد الخلافات البحرية أدى إلى اندلاع الحرب الطرابلسية – الأمريكية (1801–1805م)، والتي انتهت بتوقيع معاهدة سلام فرضت واقعاً جديداً في المنطقة [18]، لتستغل فرنسا وبريطانيا هذه الظروف في إعادة توجيه تحالفاتهما وتأمين مصالحهما مع الإيالة.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك؛ إرغام الدنمارك على دفع 75,000 قرش نقدًا فور توقيع الاتفاق، يتبعها دفع 7,000 قرش كل ثلاث سنوات. كما عقد مع السويد اتفاقاً عام 1798م دفعت بموجبه 7,700 قرش دفعة واحدة، مع التزام بدفع 1,000 قرش كل ثلاث سنوات، فضلاً عن تقديم سفينة محملة بالذخائر الحربية وهدايا ثمينة من أقمشة وساعات ومجوهرات [15]. وسارت إسبانيا على النهج ذاته لحماية سفنها التجارية، فأبرمت اتفاقية مع يوسف باشا عام 1797م دفعت بموجبها 20,000 دولار [19].

أما فرنسا، فقد حرصت على توثيق علاقاتها الصديقة مع يوسف باشا؛ ليس بدافع الروابط التقليدية فحسب، بل لاعتبارات استراتيجية فرضها صراعها المحتدم مع إنجلترا عقب سيطرة الأخيرة على جزيرة كورسيكا. وأصبح ميناء طرابلس ملجأً حيوياً للسفن الفرنسية، ومصدراً رئيسياً لتموين باريس بالحبوب والأغذية في أوقات الأزمات والحصار [15].

يُظهر هذا العرض كيف دشن يوسف باشا القرمانلي مرحلة جديدة اتسمت بالاستقرار الداخلي واستعادة السيادة البحرية لطرابلس، حيث فرض هيبته وقوته على الدول الأوروبية (مثل السويد والدنمارك وإسبانيا) وإجبارها على دفع إتاوات ورسوم سنوية لضمان سلامة ملاحتها. وفي المقابل، اندفعت فرنسا لتعزيز روابطها مع طرابلس لأسباب استراتيجية وتموينية أملتها حربها ضد إنجلترا، مما عكس الأهمية الجيوسياسية البالغة لطرابلس في معادلة الصراع البحري بالمتوسط.

ثانياً: التحالف الطرابلسي ـ الفرنسي وتداعيات الحملة الفرنسية على مصر ومالطا:

حرصت فرنسا على تعزيز حضورها الدبلوماسي في طرابلس؛ فأعادت تعيين "بوسييه" (Beussier) قنصلاً عاماً لها عام 1796م [4]. ولم تقتصر العلاقات على الجانب الثنائي، بل أضحت باريس تتوسط لدى يوسف باشا لصالح دول أخرى؛ كما حدث عام 1796م عندما استولت البحرية الطرابلسية على سفينتين أمريكيتين، فتوسطت فرنسا لإطلاق سراحهما مقابل اتفاق تسوية ودفع فدية [20].

وتوطدت هذه العلاقات مع تجهيز فرنسا لحملتها العسكرية لغزو مصر عام 1798م بقيادة القائد الثوري نابليون بونابرت. وعقب استيلاء بونابرت على جزيرة مالطا في 13 يونيو 1798م، تواصل مع يوسف باشا عبر القنصل السابق "جيمس" (James)، معلناً إغلاق منظمة "فرسان القديس يوحنا"، ومطالباً بمعاملة تفضيلية للأسرى المالطيين في قلعة طرابلس. واختتم بونابرت رسالته بلغة تحذيرية صريحة: "قل للباشا إن قواتنا التي استولت على مالطا في أقل من أربعة أيام، لقادرة على معاقبته إن هو قَصّر في احترام الجمهورية الفرنسية" [4].

آثر يوسف باشا التجاوب مع مطالب نابليون؛ بدافع الحاجة إلى مهادنة قوة عظمى، ولدخوله وشكياً في مواجهات بحرية مع السويد والولايات المتحدة الأمريكية. وأثمر هذا التفاهم عن إطلاق سراح السجناء الطرابلسيين في مالطا، مما دفع يوسف باشا للتأكيد على هذا التقارب في خطاب وجهه في 27 يوليو 1798م جاء فيه: "حرصاً منا على راحتكم، فإننا على استعداد كامل لتلبية ما تطلبونه، فأنا صديقكم في السراء والضراء" [8].

ونتيجة لهذا التحالف، قدمت الإيالة تسهيلات لوجستية حيوية؛ حيث أمّنت المراسلات بين بونابرت وقنصله "بوسييه"، وسهلت تموين القوات الفرنسية في مالطا، فضلاً عن تقديم الدعم للحجاج الطرابلسيين ووساطة بعض الشيوخ في اتصالات نابليون بالمنطقة [15]. وجاء الغزو الفرنسي لمصر واحتلال الإسكندرية ثم القاهرة اعتداءً صارخاً على أملاك الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثالث (1789–1807م)، والذي عجز عن اتخاذ إجراء تأديبي ضد يوسف باشا، مكتفياً بمخاطبته بالوازع الديني وأمره بمحاربة فرنسا [17].

غير أن التحول الحاسم وقع إثر تدخل الأسطول البريطاني وحلفائه؛ حيث تلقت القوات الفرنسية ضربة قاصمة في "معركة أبي قير البحرية" (1798م)، ففرض حصار بحري محكم على مالطا وسقطت بيد البريطانيين عام 1800م. وأمام الأزمة التموينية القاسية التي واجهتها القوات الفرنسية المحاصرة في مصر، أوفدت القنصلية الفرنسية المترجم "نودي" (Naudi) إلى طرابلس في 12 يونيو 1801م؛ حيث استقبله يوسف باشا بالترحاب وعقد معه معاهدة جددت بنود معاهدة 1729م، مع إضافة بند يسمح بمرور القوات الفرنسية عبر الأراضي الطرابلسية [17].

وتزامن هذا الدعم الفرنسي لطرابلس مع اشتعال حرب البربر الأولى (1801–1805م) بين الإيالة والولايات المتحدة الأمريكية. وكانت فرنسا قد تحينت الفرصة لقطع علاقاتها مع واشنطن عام 1798م ودخول "حرب الشبه حليفة" (Quasi-War) معها بسبب المنافسة التجارية؛ فحرضت يوسف باشا على مهاجمة السفن الأمريكية، مما أدى لاندلاع حرب استمرت أربع سنوات وانتهت بمعاهدة سلام فرضها الجانب الأمريكي عام 1805م [21].

واستغلت بريطانيا هذه التطورات لترسيخ نفوذها؛ فبعد احتلالها لمالطا عام 1800م وتحويلها إلى قاعدة عسكرية، أضحت طرابلس المموّل الرئيسي للحامية البريطانية بالمواشي والأغذية بين عامي 1801 و1805م، مما حقق للباشا أرباحاً اقتصادية قياسية جراء احتكاره لهذه التجارة [19]. انتهج يوسف باشا سياسة "الازدواجية والتوازن"؛ فحافظ على علاقاته مع فرنسا بعد "صلح أميان" (1802م) والتفاهمات العثمانية-الفرنسية تجنباً لأي أطماع احتلالية لولايته، بينما خطب ود إنجلترا وقبل وساطتها مع مملكة نابولي، موجهاً رسائل الصداقة إلى الملك جورج الثالث [22].

يبيّن هذا العرض كيف تداخلت التهديدات والمصالح الدولية لترسم معالم تحالف مرحلي بين يوسف باشا ونظام نابليون بونابرت؛ حيث أذعن الباشا لتهديدات فرنسا مدفوعاً بحاجته لغطاء سياسي في صراعاته البحرية مع السويد وأمريكا، فقدم تسهيلات لوجستية وتموينية للحملة الفرنسية على مصر ومالطا. ورغم انكسار النفوذ الفرنسي بحرياً أمام بريطانيا، نجح يوسف باشا في ممارسة سياسة الدبلوماسية المزدوجة والموازنة الدقيقة بين فرنسا وبريطانيا، مما حوّل طرابلس إلى محور ارتكاز اقتصادي وسياسي في معادلة التنافس الاستعماري بذاك العصر.

خاتمة البحث:

تأسيساً على ما تم استعراضه ودراسته عبر مراحل هذا البحث، يمكن استخلاص مجموعة من النتائج المحورية التي شكلت جوهر العلاقات الطرابلسية – الفرنسية وأطُرهَا الحاكمة خلال الفترة (1633–1805م)، وذلك على النحو التالي:

1- التحول التاريخي ومسار السلطة: شكل دخول طرابلس تحت الحكم العثماني المباشر عام 1551م وانعتاقها من الاحتلال الصليبي تحولاً مفصلياً؛ حيث مرت البلاد بعهد من الاستقرار والمنعة البحرية في ظل قادة أقوياء مثل مراد آغا ودرغوث باشا، قبل أن تدخل الإيالة في مرحلة من الضعف السياسي نتيجة اضطراب الولاة وتفشي الفساد في أوساط جند الإنكشارية.
2- المكانة البحرية وتأثيرها في العلاقات الخارجية: أدى النشاط البحري للأسطول الطرابلسي وتصديه للتجارة الأوروبية ـــ بالاقتران مع التنافس الاستعماري على حوض المتوسط ـــ إلى فرض الإيالة كفاعل إقليمي لا يمكن تجاهله، مما دفع القوى الأوروبية وفي مقدمتها فرنسا إلى إعادة رسم سياساتها الدبلوماسية والعسكرية تجاه طرابلس.
3- طبيعة العلاقات بين الصدام العسكري والدبلوماسية البحرية: اتسم المسار العام للعلاقات بين طرابلس وباريس بالتأرجح المستمر بين المواجهة العسكرية والتهدئة؛ إذ كانت الغارات البحرية والقرصنة الطرابلسية تُقابل بحملات وقصف بحري فرنسي عنيف (كحملات دوكين وديستري وكسار وغراندبريه)، لتنتهي تلك النزاعات عادةً بتوقيع معاهدات سلام وتنظيم للملاحة وتأسيس قنصليات رسمية لحماية التجار والأسرى.

4- الأبعاد الدينية والبعثات التبشيرية: حظي الوجود الفرنسي في طرابلس بدعم ورعاية بابوية عبر إرسال البعثات الإرسالية والتبشيرية (مثل الأب كانتو والأب باسيفيك)، والتي ركزت مهامها على افتداء الأسرى النصارى، ورعاية الجاليات الكاثوليكية، ومحاولة تعزيز النفوذ الديني الأوروبي في المنطقة.

5- الاستطلاع الجغرافي والاقتصادي: لم تقف غايات التواجد القنصلي الفرنسي عند حدود التمثيل الدبلوماسي والعسكري، بل استغل القناصل الفرنسيون (أمثال لامير ودي لالاند) مواقعهم لجمع استخبارات ومعلومات جغرافية وافية عن الداخل الليبي، وخرائط مسالك القوافل الصحراوية الممتدة نحو فزان وبورنو وأغاديس، تمهيداً للتمدد الاقتصادي والتوسع الاستعماري المستقبلي.

6- تأسيس الدبلوماسية الرسمية في العهد القرمانلي المبكر: أحدث مؤسس الدولة القرمانلية أحمد باشا (1711–1745م) نقلة نوعية في العلاقات الخارجية بإرساء أول دبلوماسية رسمية، تجلت في إيفاد "محمد الخوجة" عام 1718م كأول سفير عربي إلى البلاط الأوروبي. واستند الباشا ثم ابنه محمد باشا (1745–1754م) إلى قوة الأسطول لرفض الشروط المجحفة، وفرض معاهدات سلام متكافئة عامي 1729م و1752م.

7- - تدهور السيادة وانعكاس ضعف السلطة (عهد علي باشا): أدى حداثة سن علي باشا القرمانلي (1754–1794م) وقلة خبرته إلى تراجع مكانة الإيالة، حيث استغلت فرنسا والدول الأوروبية هذا الضعف — بالتزامن مع الصراع الإنجلو–فرنسي إبان الحرب الأمريكية — لفرض معاهدات مكبلة للنشاط البحري الطرابلسي (كمعاهدتي 1766م و1781م)، مما أضر بسيادة الدولة واقتصادها ومهد للاضطرابات الداخلية.

8- استعادة الهيبة وفرض الإتاوات البحرية (عهد يوسف باشا): نجح يوسف باشا القرمانلي (1795–1805م) في إعادة بناء القوة البحرية للإيالة وفرض سيادتها على مياه المتوسط، مكملاً فرض رسوم وإتاوات سنوية باهظة على دول أوروبية كبرى (مثل السويد والدنمارك وإسبانيا)، بينما حرصت فرنسا على مهادنته وتأمين الملاحة ومصادر التموين الغذائي لسفنها.

9- الدبلوماسية المزدوجة وموقف طرابلس من الحملة الفرنسية: أظهر يوسف باشا مرونة ودبلوماسية براغماتية حذرة إبان غزو نابليون بونابرت لمالطا ومصر عام 1798م؛ إذ استجاب لضغوط نابليون وقدم تسهيلات لوجستية وتموينية للحملة الفرنسية، ولكنه ما لبث أن اتبع سياسة الموازنة الازدواجية بين فرنسا وبريطانيا عقب تحول موازين القوى البحرية لسقوط مالطا بيد الإنجليز عام 1800م.

10- الأهمية الجيوسياسية لطرابلس في الصراع الدولي: أثبتت مجريات الفترة الممتدة بين (1633–1815م) أن إيالة طرابلس شكلت رقماً صعباً ونقطة ارتكاز محورية في التنافس الاستعماري الأوروبي في شمال إفريقيا؛ حيث أثرت تحالفاتها ومواقفها البحرية مباشرة على خطوط التجارة وصراعات القوى العظمى في البحر الأبيض المتوسط.

قائمة المصادر والمراجع:

[1]هشام، عبد السلام، ورمزي، فتحي .(2015) .*طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني (1835–1911)* [رسالة ماجستير غير منشورة]. كلية الآداب، جامعة مصراتة. ص. 43–57.

[2]الزاوي، الطاهر .(1970) .*ولاة طرابلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية العهد العثماني* .دار الفتح. ص. 153–157.

[3]برنيا، كوستانزيو .(1975) .*طرابلس من 1510 إلى 1850م* (خ. التليسي، مترجم). الدار العربية للكتاب. ص. 56–223.

[4]فيرو، شارل .(1994) .*الحوليات الطرابلسية* (م. ع. الوافي، مترجم). دار الفرجاني. ص. 114–520.

[5]زيلتنر، سيغفريد .(2004) *طرابلس ملتقى أوروبا وإفريقيا (1700–1835)* (ا. الزوي، مترجم). دار الفرجاني. ص. 190–198.

[6]روسي، إيتوري .(1974) *ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911* (خ. التليسي، مترجم). الدار العربية للكتاب. ص. 270–335.

[7]بروشين، نيكولاي .(2001) *تاريخ ليبيا من القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين* (ع. حاتم، مترجم). دار الكتاب الجديد المتحدة. ص. 94–129.

[8]الطويل، مصطفى .(2002) *البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرمانلي .(1795–1832)* مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. ص. 57–200.

[9]ابن غلبون، أحمد .(1936) *التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار* (ا. الزاوي، محرر). المكتبة العتيقة. ص. 222–658.

[10]الجمل، شوقي .(1989) *المغرب العربي الكبير في التاريخ الحديث والمعاصر* .دار النهضة العربية. ص. 131.

[11]حسن، الفقيه .(1999) *اليوميات الليبية .(1795–1815)* مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. ص. 658–659.

[12]بازامة، مصطفى .(1973) *الدبلوماسية الطرابلسية في القرن الثامن عشر* .دار الفكر.

[13]مختار، جمعة. (2018). العلاقات السياسية والبحرية بين طرابلس وفرنسا .*مجلة البحوث التاريخية*، 8(1)، 112–135.

[14]توللي، الآنسة .(1967) *عشرة أعوام في طرابلس (1783–1793)* (ع. الديروي، مترجم). دار الفرجاني. ص. 36.

[15]ميكاكي، أودولفو .(1961) *طرابلس الغرب تحت حكم الأسرة القرمانلية* (ط. الفوزي، مترجم). دار الفرجاني. ص. 36–139.

[16]الأنصاري، أحمد النائب .(1964) *المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب* .مكتبة الفكر. ص. 295.

[17]ابن إسماعيل، عمر .(1966) *انهيار حكم الأسرة القرمانلية في طرابلس* .مكتبة الفكر.

[18] Office of the Historian. (2013). Barbary Wars, 1801–1805 and 1815–1816. In *Milestones in the history of U.S. foreign relations (1801–1829)*. U.S. Department of State. https://history.state.gov/milestones/1801-1829/barbary-wars

[19]فولايان، كولا .(1988) *ليبيا في عهد يوسف باشا القرمانلي* (ا. المقطف، مترجم). مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. ص. 47–65.

[20]رايت، دينيس، وماكليود، آرثر .(1985) *الحوليات والأبحاث الأميركية ضد طرابلس (1801–1805)* (ع. زبيبة، مترجم). دار الفرجاني. ص. 76–83.

[21]حميد، أسماء، ورضيوي، عبد اللطيف. (2020). الموقف الفرنسي من العلاقات الطرابلسية - الأمريكية (1795–1805). *مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية*، 14(2)، 45.68–

Disclaimer/Publisher's Note: The statements, opinions, and data contained in all publications are solely those of the individual author(s) and contributor(s) and not of **JSHD** and/or the editor(s). **JSHD** and/or the editor(s) disclaim responsibility for any injury to people or property resulting from any ideas, methods, instructions, or products referred to in the content.